

- ١٤٥ -

وضع يده عليها ، وراح يحققها أو يجمع ما يتصل بها ، الصحيح وغير الصحيح ، وينتقل بنفسه الى أماكن وجودها أو قيامها ، ليستمع ويحاور ويناقش ، فقد كان ذلك طبعه الذى جبل عليه والذى عرف عنه .. ونظرة على مثيلات هذه الأفكار كما نكرت فى سطور سابقة ، لتؤكد موهبته فى هذا المجال ، سواء الأفكار الجديدة تماما ، أو تلك التى تناولها غيره دون أن يبقى هذا التناول أو يجذب أو يشد اليه أحد لياتى الرجل ويقدم الجديد بشأنها مما يلهب خيال معاصريه .

٢ - والقارئ لكتابات الجاحظ يدرك مما روى وقدم ووصف ونقل من الصور والمشاهد والألوان ، أنه لم يقدم الخبر الجديد فقط ، أو يلفت النظر الى موضوعه ويكتفى بذلك ، بل كان الرجل يقدم كل شيء عنه ، كل ما قرأه حوله ، وما سمعه من مختلف المصادر وما شاهده بعينى رأسه ، من مقدمات وظواهر وشواهد ونوادير وطرائف وأسباب بعيدة أو قريبة ، وقد يعرج على رأى قرأه فى مخطوط مترجم ، عن خبر أو واقعة أو قصة مشابهة ، حدثت فى بلاد الهند أو فارس أو رواها « أرسطو » الى غير ذلك كله .. من وقائع مشابهة ، حديثة أو قديمة ، فضلا عن العربية منها .

٤ - ثم - ومن خلال جميع المقدمات السابقة - من الذى يستطيع أن ينكر أن الرجل يجمع بين بعض صفات المخبر الصحفى والباحث ؟ وأما عن درايته باللغة العربية وعن ذلك القدر من الذوق الأدبى ، فلا ينكرهما الا غير سوى أو حاقد ، وذلك كله بصرف النظر عن معرفة اللغة الأجنبية والتصوير والاختزال فهذه طرق وأساليب ترتبط بالحاضر أكثر من ارتباطها بالمناخ الذى عاشه الرجل دون أن ننكر قراءته النهمة لأغلب المترجمات المعروفة فى عصره .

٥ - أما وقد راح يقدم هذه « التغطية » التى « قتل » خلالها موضوعاته بحثا - وكما يقولون - وطاف وحلق وجمع وتناول أكثر ما كتب وقيل حولها ، من مصادرها المخطوطة ، والمتحدثة ، والمشاهدة ، فمن المؤكد أنه قدم لقرائه ، فى جيله ، وللأجيال من بعده ، الكبير والصغير ، العالم والمتعلم ونصف المتعلم ، تلك المادة المفيدة والمشوقة والتى طوت فائدتها الحقب وقفز التشويق للمصاحب لها عبر القرون نفسها ، فهل يوجد بيننا من ينكر ذلك ؟

٦ - وأما التوجيه المثمر ، وأما الرأى القائم على معرفة خبير ، فجميعها ( الجاحظ )